

الانتحار كمؤثر اجتماعي

مراجعات عن الاستاذ شرتون هيل

٣ - اذا رجعنا الى منارات احصائية نتناول فيها نسبة وقائع الانتحار ونسبة وقائع الجنون في بلدان مختلفة ، وصلنا الى نتائج مشابهة للنتائج التي وصلنا لها من قبل (١)

وقد وضعنا في الجدول الآتي ترتيب البلدان حسب انتشار ظاهرة الجنون في كل منها . غير اننا نجد أن نسبة حوادث الجنون في كل منها لا يتناسب مطلقاً مع عدد حوادث الانتحار . فيلاد زويج ، وقد اختصت بابها اكثر البلدان التي ذكرناها خضوعاً لظاهرة الجنون ، تشغل المكانة الرابعة بين البلدان في ظاهرة الانتحار : واليك البيان

مقارنة النسب بين بلدان مختلفة في ظاهرتي الجنون والانتحار

الملكة	عدد المصابين بالجنون في كل ١٠٠٠٠	عدد المنتحرين في كل ١٠٠٠	مركز المملكة نسبياً في نسبة الجنون في نسبة الانتحار	٤
نرويج	(١٨٥٥) ١٨٥	١٠٧ (١٨٥٦ - ٥٥)	١	٤
سكوتلاندا	(١٨٥٥) ١٦٤	٣٤ (١٨٥٦ - ٦٠)	٢	٨
دنمارك	(١٨٤٧) ١٢٥	٢٥٨ (١٨٤٦ - ٥٠)	٣	١
هنوفر	(١٨٥٦) ١٠٣	١٣ (١٨٥٦ - ٦٠)	٤	٩
فرنسا	(١٨٥٦) ٩٩	١٠٠ (١٨٥١ - ٥٥)	٥	٥
بلجيكا	(١٨٥٨) ٩٢	٥٠ (١٨٥٥ - ٦٠)	٦	٧
فوتنبرج	(١٨٥٣) ٩٢	١٠٨ (١٨٢٦ - ٦٠)	٧	٣
ساكسوني	(١٨٦١) ٦٧	٢٤٥ (١٨٤٦ - ٦٠)	٨	٢
بافاريا	(١٨٥٨) ٥٧	٧٣ (١٨٤٦ - ٥٦)	٩	٦

فاذا نظرنا في هذا الجدول وجدنا أن بلاد الدانمارك وساكسوني ، موطن الانحار ومبائه التاريخية ، وقد شغلت المنزلتين الاولى والثانية بين ممالك

(١) نشرت الابحاث الاولى من هذا الموضوع من عدي العصور اشهر نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٢٧

أوروبا في الاختصاص بظاهرة الانتحار ، أما تشغلان المنزلين الثالثة والثامنة في ظاهرة الجنون . ونرى من جهة أخرى أن بلاد نرويج واسكوتلاندا ، وقد شغلنا المنزلين الأولى والثانية في نسبة الجنون ، قد شغلنا في الانتحار المنزلين الرابعة والثامنة . والحقيقة أن منزلة اسكوتلاندا وساكوني تتبادلان النسبة مقلوبة في الظاهرتين على النمط الآتي :

المنزلة في الجنون	المنزلة في الانتحار	
٨	٢	اسكوتلاندا
٢	٨	ساكوني

لهذا وجب أن نحذر كل الحذر من أن نتبع أثر شيء في تلك المشابهات التي تقع بين الاسباب التي تحتكم في الجنون ، والاسباب التي تحتكم في الانتحار . فليس الامر محصوراً في أن النساء ، وهن أكثر تعرضاً للجنون ، أقل نزعة الى الانتحار من الرجال ، بل أن الممالك التي يظهر الاحصاء أن نسبة الجنون فيها أكثر من غيرها ، هي بذاتها التي اظهرت الاحصاءات أن نسبة الانتحار فيها أقل من غيرها والعكس بالعكس .

ومع كل هذا فقد يعترض المعترضون بقولهم إن ظاهرة الانتحار إنما ترجع الى الوراثة . وقد يتفق أن تقع على حالات كثيرة يظهر فيها أن اسراً ما قد يتفشى فيها الانتحار وكأنه راجع الى ثبات صفة فزيولوجية ثابتاً وراثياً . والحقيقة أننا كثيراً ما تقع على حالات يظهر فيها الانتحار لالحالة من الحالات الثابتة في صفات الاسرة خلال عدد متتابع من الاجيال المتعاقبة لاغير ، بل إنه يظهر بين افراد الاسرة في دور مخصوص من العمر . فلقد ذكر « مورو » Moreau العالم الفرنسي المشهور ، أسرة انتحار رجالها خلال جيلين أو ثلاثة أجيال متتالية عندما كانوا يبلغون دوراً مخصوصاً من العمر ، ولم تخطيء القاعدة في حادثة واحدة . وذكر اسكيرول Esquirol أسرة أخرى انتحار فيها ثلاثة اخوة على التوالي . وذكر مورو مثلاً آخر لاسرة انتحار من اعضائها ثلاثة اخوة وعم شقيق . غير أننا مع هذا لا يجب أن نفعل من أن كل الامثال التي ضربت

في اسر قيل بان فيها نزعة وراثية الى الانتحار قد ذكرها علماء من المشتغلين بعلاج الامراض العقلية في حالات وقع الافراد فيها فريسة للجنون . ولا ينبغي لنا أن ننقل بجانب هذا عن أن الجنون هو المرض الوحيد الذي يغلب أن يكون فيه من الخصائص ما يجعله ذا صفات وراثية تظهر في الاعقاب . ويحق لنا على هذا أن نقول بكثير من اليقين ان الحالات التي رواها الاختصاصيون في الانحراف العقلي انما هي حالات جنون لا ريب فيها . وعلى هذا تكون النزعة الى الانتحار والتي تظهر موروثه في اسرة من الاسر هي لدى الواقع صورة خاصة من صور الجنون وانها نتيجة لحالات يخلقها عقل فيه انحراف جنوني . وعلى الجملة نقول بان الجنون قد ينقل الى الاعقاب بالوراثة وأن هذا ليس له من علاقة بالانتحار باعتباره انحرافا جنونيا . وان الجنون اذا ظهر بصورة واحدة خلال أجيال متعاقبة فانه انما يرجع الى حالات خارجية تقع اتفاقا (١)

ومن الجائز أن يفرض الباحث على أن ينظر في المحاكاة - « التقليد » - باعتبارها عاملا ذا أثر في احداث الانتحار . ولا مشاحة في أن الانتحار لا يعمد أن يكون ظاهرة معدية . فان التاريخ الذي يروى عن خمسة عشر من جنود فرنسا المسنين الذين انتحروا سنة ١٧٧٢ بان شنق كل واحد منهم نفسه بعد الآخر في حبل علق في هلب واحد في فناء الانتفاليدي في باريس ، لحالة جليلة قد نستشهد بها على ما ذكرناه . ولما تكررت حوادث الانتحار شنقا في هذا الهلب فكر احدهم في نزع . ومنذ نزع لم تقم حادثة انتحار واحدة في ذلك المكان . وهذا يدلنا دلالة واضحة على أن الانتحار لم يكن تعيينا هو للعامل المعدى ، فان من الجلي ان هناك عوامل أخرى ، اهمها الاستعداد لقبول وحي الفكرة - suggestibili - قد فعلت فعلها واظهرت نتائجها . والدليل

(١) ان نظرية الجنون الجزئي - المونومانيا Monomania التي قال انصارها بان الفرد قد يكون مجنونا في ناحية ويكون عاقلا في بقية نواحيه العقلية فقد تنقضت تماما الآن ، فان الفكرة في أن العقل مقسم الى كفايات منفصلة ، مستقلة قد تنقصها الآن ما استكشفت حديثا من الحقائق في التكوين الخمي والحياة الروحية

على هذا أنه بمجرد رفع الهلب من مكانه ، قد اختفى معه العامل الموحى بفكرة الانتحار ، وانقطع تيار الموت الاختياري عن أن يجرف امامه اناساً غير الذين انتحروا ، وقضوا على حياتهم . وعلى هذا لا نستطيع أن نقول بان الخمسة عشر الدين انتحروا ، كان السبب في انتحارهم راجعاً الى فعل المحاكاة وحدها .

اما اذا أردنا أن نتدبر أهمية المحاكاة في الايجاء بفكرة الانتحار ، فان من الواجب علينا أن نحدد ظاهرة المحاكاة ذاتها . واظن اننا لانجد للمحاكاة تعريفاً أجود من تعريف مسيو دوركهيم اذ يقول :

« تحدث المحاكاة اذا كان لفعل ما سابقة مباشرة تماثل فعلاً شبيهاً بها ، قام به شخص آخر ، من غير أن يبذل المحاكي اى مجهود عقلي ، مجرداً أو ضمناً ، بحيث لا يؤثر في الصفة الذاتية التي يختص بها الفعل المكرر ، ولا يتدخل بين هذا التكرار وتنفيذ الفعل نفسه »

لهذا ترى أن مجرد الطاعة للقوانين والعادات والتقاليد ليست من المحاكاة في شيء . فان الفرد المتمدين ، على وجه العموم . إنما يطيع القوانين و التقاليد التي تفرضها الجماعة على الاعضاء التابعين لها ، من غير أن يكون لقوة حكمه الفردي أى أثر في احداث هذه الطاعة أو خلقها . فان الفرد يتحقق بطريق ما من أن عصيانه لقاعدة من القواعد المرعية لا بد من أن يحدث له متاعب شديدة لا قبل له بها . ولذا نراه يطيع القاعدة المفروضة ، لا لان شخصاً غيره قد أطاعها من قبله ، ولكن لان هذا الفعل بالذات قد نال مع الزمان مبررات اقربها الجماعة التي هو تابع لها . وسنرى فيما بعد أن مجموعة من القوانين أو القواعد التقليدية لا تحدث في الافراد أثرها المطلوب الا وكان من الضروري أن يسلم الخاضعون لها بأنها عادلة . فان الفرد المتمدين إنما هو كائن شاعر بوجوده الذاتي . والشعور بالذات نتاج مباشر او خلق خاص من مخلوقات الحالة الاجتماعية . ولهذا ينبغي أن يلعب دوراً ذا شأن كبير في الحياة الاجتماعية . وعلى هذا يترتب أن تكون الطاعة للقواعد التقليدية وللقوانين والعادات في جماعة كملت الفتها وتمت روابطها الاجتماعية ، وكانت الطاعة في افرادها ليست مجرد كلمات تتحرك بها اللسان بل تعميها القلوب ، تستلزم بدياً ان يكون هنالك فعل شعوري وعيني يقبلها ، وحكم فردي يوافق عليها .

وعلى هذا نقضى بأن أحداث فعل تفرضه الجماعة ليس، بناء على هذا، بتكرار ميكانيكى لذلك الفعل . لأن التكرار الميكانيكى ينهى وجود الشعور بمحدث الفعل نفسه . هذا فى حين أن المحاكاة ليست بأكثر فى تكرار ميكانيكى لفعل ما من غير أن يتدخل الحكم والتمييز الفردى بين تصوير الفعل الذى سيحدث وأحداثه فى الواقع . إنما المحاكاة تكرار لفعل ما من غير أن تتكون بواعث تسوق اليه، ولوجه التكرار خالصا فى كل شائبة ومن كل دافع . ومن الظاهر أيضا أن كلمة «محاكاة» Imitation لا يمكن أن تصرف على حالات العدوى الاجتماعية التى تحصر تحت القواعد الخاصة بمظاهر الجماهير النفسية . فان جمهورا من الافراد قد يتفق أن يجتمع فى مكان ما إما لغرض محصور محدد، وإما للأغراض أصلا . وهنا يتعين، تحت تأثير مانسميه تجاوزاً «العدوى الاجتماعية» ، على هذا الجمهور أن يأتى فعلا أو أفعالا لم تكن قد توقعها احد من الافراد الذين يكونون الجمهور . خذ مثلا الجمهور الذى اجتمع فى باريس سنة ١٩٠٦ فى ميدان سباق «لونشان» تحت تأثير الفكرة فى أن المسابقات قد دخل فيها الغش والخداع وان الرابحين كانوا يسرقون ، فاحرق مكان المراهنات . فان شيئا اشبه بالهزة الكهربائية قد يفشى الجمهور فى مثل هذه اللحظات . ولم يكن لدى أى فرد من الافراد الذين صعدوا الى زيارة ميدان سباق «لونشان» أية فكرة فى اقتحام مكان ما أو إحراق شيء ما . غير أن المسابقات كانت سيئة الادارة . وكان التهيج العصبى الذى استمكن من الذين فقدوا نقودهم فيها قد اتصل تياره الى الآخرين ، وكان كلما تملك هذا التيار عدداً أكبر من الناس ازدادت قوته بنسبة ذلك ، وأخذ ينمو تدرجا حتى أصبح انفعالا لا يمكن الاحتكام فيه . فان التغاير الكمي ، لا بد من أن يصحبه تغاير وصفي . غير اننا فى مثل هذه الحال لا نقع على أثر لتكرار أفعال أو أفكار ما .

إنما نحن فى مثل هذه الحال نقع على احتكاك متبادل بين الافراد الذين يكونون الجمهور ومن طريق هذا الاحتكاك يتجاذب عدد من الحركات المدركة بفضل تشابهها . ومن ثم تتفانى هذه الحركات المدركة بعد قليل من الزمان وتأخذ هذه الحالة فى التكرار مرات عديدة حتى يخلق من طريق تكرارها حالة ضامية مخالفة تمام المخالفة للحالة التى خلقتها العقلية الفردية بادية ذى بدء . ومن هنا

نقول بأن النتيجة تكون مخالفة تمام المخالفة لما يمكن أن ينتج من طريق المحاكاة. لأن المحاكاة باعتبارها تكراراً ميكانيكياً لفعل وقع من قبل ، لا يمكن أن تؤدي إلا الى تكرار افعال متشابهة .

غير انه قد يمترض علينا بأن المحاكاة تلعب دوراً ذا شأن في الاغراء على الانتحار، حتى ولو قصرنا معناها على التكرار الميكانيكي لفعل وقع من قبل . واني لا انكر أن للمحاكاة نصيباً من الاغراء على ارتكاب الانتحار في بعض حالات فردية . فمثلاً حالة الخمسة عشر جندياً المسنين الذين شنقوا انفسهم الواحد بعد الآخر في هلب . فان هذه حالة لا يمكننا أن ننكر انه من المحقق أن المثل الذي أعطاه أول منتحر منهم ، قد أثر في اخلاق تاليه المريضة ، تأثيراً دفعه على أن يتبع مثال الاول في الانتحار شنقاً في نفس المكانة وعلى ذات الطريقة . ولا بد من أن يكون وحي الفكرة ، كما قلنا من قبل ، قد فعل فعله في الثلاثة عشر الآخرين بما جعلهم ينتحرون . وقد نستطيع أن نذكر حالات اخرى كانت المحاكاة اكبر مؤثر فيها . غير أننا اذا أردنا أن نعرف تأثير المحاكاة في تحديد النسبة الاجتماعية في الانتحار ، فليس يكفي أن نعتمد على حالات فردية ، مهما كثرت وتعددت . بل يجب علينا أن نأخذ مجموع السكان في أمة من الأمم ، وأن ندرس الاقاليم التي هي أكثر عرضة من غيرها لظواهر المس الانتحاري ، وأن نرجع الى الاحصاءات لنعرف ما اذا كانت الاقاليم الموبوءة تؤثر بالعدوى في ما يجاورها من البقاع تأثيراً يكفي لازدياد عدد حوادث الانتحار فيها . كما انه من الواجب أن نتبع هذه الطريقة نفسها لا في بحث الاقاليم المتجاورة في مملكة واحدة ، بل في بحث الممالك المتجاورة لنعرف أثر هذه الحالات في عالم الاجتماع

